قراءة في المعايير النصية

د. منتصر أمين عبد الرحيم

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وبعد، فشكري وامتناني العميق إلى سعادة الأستاذة الدكتورة رئيسة القسم على ما أفضلت به علي من فرصة طيبة لأن أكون بين أساتذتي الكرام منسوبي القسم وأن أتقدم بهذه الخاطريات لأضعها بين يدي ذوي البصيرة طلاب هذا القسم وطالباته، ولا يفوتني في هذا السياق أن أتقدم بأطيب تحية إلى سعادة الدكتور سامح الهمامي.

أنبه بداية إلى أن هذه المحاضرةَ ترتكز على ما جادت به قريحة اثنين من رواد لسانيات النص هما روبرت دو بوجراند وولفجانج درسلر، وذلك بوصفهما أصحابَ الحق التاريخي في بحث تلك المعايير مجتمعة، إذ سيقتصر دوري هنا على النقل وبعض الشرح المتواضع بطبيعة الحال.

مخطط الورقة

سأبدأ أولا بتعريف للنص والخطاب، ثم أعرف بلسانيات النص وتسمياتها وبعض الفروق بينها، وأتوقف قليلا عند مفهوم "النصية" لأدخل بعدها مباشرة إلى المعايير النصية السبعة وهي: الاتساق، والانسجام، والمقصدية والتقبلية، والموقفية والتناص والإعلامية، مقدما لها بحديث عن السيميوطيقا وعلاقتها بأغلب تلك المعايير.

١- تعريف النص

أود أن أشير إلى ملاحظة أراها مهمة في هذا السياق، وهي أن السعي إلى تعريف بعض المصطلحات اللسانية الحديثة من حيث اللغة في المعاجم العربية قد لا يكون موفقا في أغلب الحالات لأسباب لا يمكن حصرها، ولا يصح في بعض الحالات إلا بتأويل. ولكن هذا التأويل أو ذاك لا يقوى على تقديم شيء مهم في الربط بين المعاني اللغوية والاصطلاحية.

وفي حالة النص Text فأصله في اللاتينية Tex-ere [تك-سيري] بمعنى "النسيج"، ومن هنا كان موفقا الدكتور الأزهر الزناد حين عنون كتابه بـ"نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصا"، إذن النص لغة هو النسيج أي نسيج من الكلمات والأفكار والمعلومات والمعاني.

أما النص من حيث الاصطلاح، فيمكنني أن أقدم له القائمة التالية من التعريفات:

- الوحدة الأعلى مرتبة من الجملة (اللسانيات الوصفية)
- تتابع من الجملة (أو جمل مركبة) عالية الاتساق(اللسانيات التوليدية)
- علامة مركبة (سميوطيقا)
- فعل كلامي مركب (تداولية)
- حدث تواصلي يلبي سبعة معايير للنصية (بوجراند ودرسلر)
- منطوقات لغوية مكتوبة ومطبوعة (فان دايك)
- تتابعات جملية ذات بنية كبرى (فان دايك)

وعليه نرى أن مصطلح النص يستعمل بأكثر من تعيين، بل قد يختلف ليس فقط بين مدرسة وأخرى، أو بين مؤلف وآخر، بل يختلف كذلك لدى المؤلف الواحد في مصنفات له متعددة.

وليس الأمر هنا يدعو إلى الانزعاج من شبهة تشظي المفاهيم، بل العكس هو الصحيح إذا كنا نتحدث عن مجال له تاريخ طويل يؤسس لبناء معرفي يختلف عن الأنظمة النظرية السائدة عبر مقاربات مختلفة متعددة الاختصاصات، وبالتالي يمكن أن نطلق على

بعض مصطلحاته ولو كانت أساسية مصطلحات مؤقتة، ويمكنني أن أقول من خلال تجربتي في قراءة تاريخ هذا العلم إن أغلب تعريفات مصطلحاته كانت تعريفات إجرائية (إبراز المفهوم في ملمح ملموس ووضع معايير لقياس صدق تمثيله) كما هو الحال في مقاربة دو بوجراند ودرسلر.

٢- الخطاب:

ليس مصطلح الخطاب أفضل حال من مصطلح النص، فهو أيضا له عدة من التعريفات منها: أنه تبادل لفظي يجري ضمن محادثة (ستوبس)، تعبير لغوي أعلى من الجملة والعبارة (ستوبس أيضا)، أي صيغة لغوية ضمن سياق (براون ويول)، تعبير لفظي منطوق أو مكتوب.

أما تحليل الخطاب فله تعريفات مختلفة أيضا منها: دراسة الطرق التي تستعمل بها اللغة ضمن النصوص والسياقات، ودراسة اللغة المستعملة من قبل جماعة لغوية معينة. وغالبا ما تدل التعريفات على محاولة المحلل تعيين السمات اللغوية والعوامل الاجتماعية والثقافية التي تعيننا على فهم وتفسير نصوص وحوارات مختلفة.

من مقاربات الخطاب: نظرية الفعل الكلامي/ اللسانيات الاجتماعية التفاعلية/ اثنوجرافيا التواصل/ التداولية/ تحليل المحادثة/ تحليل التنوعات.

وتبقى القضية هنا هي العلاقة بين النص والخطاب، وهي إشكالية، ففرانسوا راستي يرى أن النص هو النصب التذكاري للخطاب، وكأنه يريد أن يقول: إن النص مجموعة من الخطابات، وهو عين ما تجده لدى تالبوت حيث يعرف النص بأنه "النسيج الذي تتجلى فيه الخطابات". أما العلاقة بينهما كما يراها دو بوجراند فسأجعلها في نهاية هذه الورقة لفائدة معينة.

٣- من الجملة إلى النص:

في عجالة مخلة يمكنني أن أقدم لمحة عن تاريخ الانتقال من الجملة إلى النص فيما يلي فأقول: على الرغم من وجود مفهوم النص في كتابات كل من يلمسليف وفيرث ودعوة الأخير اللسانيين إلى دراسة الحديث الفعلي ظل النص معزولا من قبل أصحاب كل من سوسر وتشومسكي حتى منتصف الستينيات حينما بدأ بيتر هارتمان – الذي يعتبره دو بوجراند - مؤسس لسانيات النص في تقدم الفكرة التالية في تعريفه للنص: "النص وحدة

لغوية مهمة يمكنها أن ترث خصائص الجمل"، حينها بدأ العلماء في بحث قواعد النص وخصائصه التي يمكن أن تستثمر في صياغة قواعده بوصفه متتالية من الجمل.

ولما كانت اللغة ظاهرة معقدة قام العلماء بتقسيمها إلى مستويات (صوت – الكلمة – الجملة) منفصلة بغرض الدراسة، لكنها مستويات متفاعلة متقارنة، فكانت غاية علماء النص تتمثل في محاولة إدراج النص ضمن مستويات دراسة اللغة. ومن هنا كان الانتقال من بحث الجملة إلى استكشاف النص، تارة باستغلال ما قدمته مناهج دراسة الجملة، وبالاستعانة بعلوم أخرى تقوم على دراسة النصوص كالأدب، والأسلوبية، والانتربولوجيا، والسيميوطيقا، وغيرها تارة أخرى.

مسميات لسانيات النص

للسانيات النص عدة من التسميات غير المتكافئة منها "نحو النص Text Grammar" أو "تركيب النص Text Syntax"، وأغلب ما تنطبق عليه هذه التسمية هي الدراسات التي حاولت تمديد مقاربات الجملة واستثمارها في تعيين "انسجام" النصوص، ومثالها الواضح محاولة فانديك وضع قواعد (نماذج) للنصوص باستثمار النظرية التوليدية التحويلية. ومن تسمياته أيضا "لسانيات النص Text Linguistics" التي تهدف إلى تقديم معايير محددة لـ"إنتاج النص" و"فهم النص"، ومثالها محاولة دو بوجراند ودرسلر. أما مصطلح علوم النص Text Sciences فيشير بشكل عام إلى جميع العلوم التي تهتم بالنصوص كالبلاغة، والأسلوبية، والأدب، والانتربولوجيا .... الخ.

النصية Textuality

تسعى لسانيات النص إلى تقديم نموذج وصفي شامل يقوم على جرد الحد الأقصى من مشتركات النصوص، هنا يمكنني أن أقدم مفهوم النصية من خلال زاويتين مختلفتين الأولى تعريفها بأنها المعايير التي يكون بها أي تعبير لغوي نصا، والثانية تعريفها بأنها مجموعة المعايير المستنبطة من مشتركات النصوص

وهنا فإن من أهم الأسئلة التي ينبغي أن يضعها المنظر والمحلل بعين الاعتبار السؤال الخاص بالعلاقة بين النص والنصية؛ هل يسبق النص النصية؟ أم أن النصية تسبق النص؟ لأن هذا السؤال يرتبط بمنهج المعالجة النصية ومنطلقاتها النظرية.

المعايير النصية السبعة

عدة من المعايير التي تم جردها من مشتركات النصوص التي يمكننا من خلالها إن صح تطبيقها على تعبير لغوي/علامة لغوية الحكم على هذا التعبير بأنه نص، وعدة هذه المعايير عند دو بوجراند ودرسلر سبعة مقسمة على أربعة مجموعات

- لغوية : الاتساق والانسجام
- نفسي : المقصدية والتقبلية
- اجتماعية: الموقفية
- إدراكية: الإعلامية والتناص

المعايير اللغوية

هي المعايير التي تتصل بالجانب اللغوي للنص، وهما معياران: الاتساق والانسجام، والفرق بينهما بشكل مبسط أن الاتساق يرتبط بالصياغة، بينما يرتبط الانسجام بالمحتوى.

فالاتساق ارتباط الكلمات بعضها ببعض عبر مجموعة من العلاقات (المعجمية/ النحوية) التي تتحقق بها متصلية (اتصال) النص على المستوى (السطحي) النحوي.

أغلب الدراسات تفرق بين الاتساق من حيث الموارد (موارد الاتساق) فتجعله نوعين (اتساق معجمي) و(اتساق نحوي)، لكن لاحظ معي المثال التالي:

(كتب) لفظ (رأس) معجمي يقتضي لتمام معناه (فاعلا) و(مفعولا) بحكم أنه فعل متعد. تلحظ هنا أن اللفظ المعجمي يقتضي ويؤكد تحققه النحوي، وأن التحقق النحوي يتوقف على طبيعة اللفظ المعجمية. فلا فصل هنا بين المعجم والنحو إلا من أجل رصد موارد الاتساق.

فمن موارد الاتساق المعجمي

- التكرار (تكرار كامل دون تحول أو إضافة)
- التكرار الجزئي (تكرار بصيغ محولة) «تزر – وازرة – وزر» «يعاني – معاناة»
- الموازاة / التوازي (استعمال نمط نحوي ذاتها في أكثر من موضع، أو قلبها) «لا تبقي، ولا تزر» «القراءة تثبت المعلومات، وتنشط الذهن، و.....» نمط مكرر ولكن بمحتوى مختلف
- إعادة الصياغة (تكرار المحتوى مع اختلاف التعبير عنه) «بايدن» «رئيس الولايات المتحدة»

ومن موارد الاتساق النحوي

- الحذف - العطف بأدواته المختلفة - الاستدراك – الفصل - الاستبدال
- الإحالة: الصيغ البديلة Pro-form خارجية - داخلية (قبلية – بعدية)
- **الزمان والجهة** (الحدث وحدة مغلقة – الحدث وحدة متعددة ممتدة زمنيا) (وقوع الحدث – عدم وقوعه – استحالة وقوعه)
- **التنغيم والنبر**

وموارد الاتساق كثيرة وقائمتها تطول إذا نظرنا إلى إمكانات كل لغة، لكن ليست القضية هنا رصد جميع الموارد اللغوية للاتساق (داخل النص) بقدر تعيين تلك التي لها دور أساسي في ربط ما بدا متفرقا ووصل ما بدا

منقطعا. وعلى محلل النص أن يربط بين هذه الموارد وبين مقصد الكاتب، وتعليل شيوع مورد ما، وقلة مورد آخر، هل الكاتب يتعاون مع المتلقي فتكون الصياغة التي تسودها سمة اتساق معينة موجها من موجهات الفهم والوصول إلى المعنى، أم أنها بهذه السمة نفسها تمارس سلطتها في إخفاء هذا المعنى؟ إذن يجب تبرير الاتساق وتمظهراته بالنظر إلى جودة النصوص وإعلاميتها وموقفيتها ومدى تحقيقها لأغراض منشئ النص وشروط التلقي وطرق التأويل.

٢- الانسجام

الصورة المرفقة هي من لعبة تعتمد على بناء كلمات محددة بالاعتماد على ما تطرحه الصورة المبينة أعلى جداول الحروف، وهناك إمكانية لأن تتيح اللعبة للمتسابق بعض التلميحات التي تعينه في بناء تلك الكلمات فتشير لبعض الحروف التي تبدأ بها، وحينما تكون قادرا على بناء الكلمة دون مساعدة قد تختار بصورة صحيحة حرفا أخير للكلمة التي توصلت إليها، لكن اللعبة تنبهك حينها بأن الكلمة خاطئة، ليست الكلمة خاطئة في حد ذاتها، لكن الحرف الذي اخترته لنهايتها يتصل في هذا الموضع ببداية أو نهاية كلمة أخرى، وعليك حينها أن تختار ذات الحرف لكن في موضع مختلف. .

في هذه الصورة تحديدا أغلب الكلمات المطلوبة تعبر عن معان ومفاهيم (الصعود، النجاح، القمة، الإنجاز، ... إلخ، وأغلب هذه المفاهيم تربط بينها علاقات منطقية فالواحدة تستدعي الأخرى في ترتيب معين، وهي ترسم صورة لما قد يكون عليه الأمر من المفاهيم المضادة.

سأنظر هنا إلى التلميحات المتعلقة بحروف بناء المفاهيم بمنطق يجعلها قريبة الشبه من الاتساق، وسأنظر إلى مجموعة المعاني والمفاهيم هنا بل

وتنبيهات اللعبة على أن هذا المفهوم يتعلق بكلمة أخرى تالية أو سابقة وكأنه أمر يتعلق بالانسجام لكي تبدو الصورة في النهاية ذات مغزى، وهذا هو معنى الانسجام.

فالانسجام مستوى أعلى من مستوى الاتساق إذ يتعامل مع (المعاني – الأفكار - المعارف) أي القدرة التي تمتلكها التعبيرات اللغوية على نقل المعرفة، ويختص باتصال المعارف المستثارة بتعبيرات النص، لأن التعبيرات السطحية تتخذ في حالة الانسجام كعلامات تستثير مفاهيم معينة وعلاقات تربط بينها.

وليس معنى ما سبق أننا سنسير في خط أفقي متواصل من المفاهيم المتصلة، فبعض النصوص لا تتضح عوالمها إلا بنهايتها المفاجئة ومن ثم يتم ترتيب مفاهيمها بطريقة معينة تؤدي إلى تلك النهاية.

هنا يمكن أن نقول إن الانسجام هو الاستراتيجيات والتيكتيكات التي يوظفها المؤلف/ المتلقي في الوصول إلى المعنى = المعرفة

نعود إلى العرض لبيان مفاهيم بعض المصطلحات السابقة:

- الانسجام: الإجراءات التي يتم بها بناء المفاهيم ضمن عالم نصي محدد.
- العالم النصي: المعارف العامة التي تتم استثارتها خلال معالجة النص.
- المفاهيم: بنية المعرفة التي يتم تخزينها وتنشيطها.
- مفاهيم رئيسة: المفاهيم الأساسية المستعملة في تنظيم المعاني (أحداث، أفعال، مواقف، أشياء).
- مفاهيم ثانوية: تستعمل في ميز (التفريق بين) وتعيين المفاهيم الأساسية (زمان، مكان، سبب، نتيجة، أداة).
- القضية: مفهومان تربطهما علاقة معينة (البنية المفاهيمية)

- العلاقة: مهمتها تعيين مدى الارتباط المتبادل بين مفهوم وآخر (حدث ناتج عن حدث آخر هو سبب)
- يمكن لمجموعة من القضايا أن تشكل كتلة مفاهيمية حال تمت معالجتها كوحدة واحدة مؤلفة من عدة قضايا.
- ومن ثم يصبح المعنى (معنى النص كاملا) هو العلاقة بين المفهوم أو الكتلة المفاهيمية وكيان حقيقي أو متخيل ضمن نموذج المتلقي عن العالم.

المعايير النفسية: المقصدية والتقبلية

ليست المقصدية والمقبولية كيانين متباعدين أو منفصلين، رغم ما يبدو بينهما من تضاد، حيث ترتبط الأولى بالمنشيء والثانية بالمتلقي، فالمقبولية هي النظير المنطقي للمقصدية، لأننا نفكر فيهما كأول وثان، أو مثير واستجابة، وتشترك المقصدية والمقبولية بصفتهما معيارين من المعايير النصية في أن كل واحدة منهما تعد مدخلا من مداخل التسامح، التسامح بشأن إخلال النص بمعياريه اللغويين الاتساق أو الانسجام، فالمتكلم لا يقصد أن يكون نصه غير متسق أو غير منسجم إلا في ظل ضغط من الضغوط الداخلية النفسية أو الخارجية السياقية، وكلنا نعرف قصة الرجل الذي أخطأ من شدة فرحه برجوع دابته وعليها زاده وعتاده فقال على سبيل الحمد والشكر: "اللهم، أنا ربك وأنت عبدي"، وذاك الذي طلب الإذن في كبيرة من الكبائر، بل يقصد المتكلم أن يكون كلامه موصوفا بالاتساق والانسجام ليس في حد ذاته بل في ضوء علاقته بالسياق وبطريقة واعية غير طريقة "أنا ربك"، وغير طريقة شارب الخمر الذي سمع من ابن مسعود سورة يوسف فقال: والله ما هكذا نزلت، فلم يقبل منه، وحده بالخمر، فالمتهم الذي قد تسأله: أتعرف القتيل؟ فيقول:

لا، جاري ... مجرد جار. فأنت تقبلها وتستدل بها في المحاكمة على بعض كذبه، وهو يقصد بها دفع التهمة وإخفاء بعض المعلومات أو الأفعال. فهنا نصوص قد لا تلبي أحد المعيارين اللغويين الاتساق والانسجام لكنها في الوقت نفسه لا تنقض غرض الاتصال أو خططه وأهدافه لا من قبل المتكلم المبدع ولا السامع المتلقي.

المعيار الاجتماعي: الموقفية

أول ما يلاحظ هنا أننا نستعمل كلمة "موقف" ولا نستعمل كلمة "سياق"، ربما لأن النص لدى أصحاب هذا المنهج "فعل تواصلي" (مكتوب أو منطوق) يعبر عن "مشهد" معين لفعل من الأفعال اللغوية: التعزية، التهنئة، الاعتذار، المدح، خطاب سياسي، تقرير صحفي، الحكي، برنامج حواري، تحليل سياسي، مسلسل كل هذه مناسبات تواصلية ضمن مواقف ضمن سياقات.

فكل ما يقوم بوصل النص بواقعة معينة يطلق عليه أصحاب المنهج "موقفية" قد تعبر الشارع وتعلق على واقعة معينة أو فعل من أفعال من أحد المارة، قد تكون محاضرا فأنت تعرض معلومات وتعبر عن قناعات وتفترض فرضيات، وقد تكون مسيرا لندوة فتنظم الأدوار وتسمح بالمداخلات وتقدم المحاضر، وهكذا.

فإما أنك في كل/بعض تلك المواقف تعرض آراءك ومعتقداتك وتقييمك ضمن هذا الموقف (توسط)، أو ترصد حادثة من الحوادث أو موقفا من المواقف (رصد)، أو تدير هذا الموقف (إدارة) لتسير به نحو هدف ما. والانتقال من الرصد إلى الإدارة يعتمد على مجموعة من الخطط القابلة للتعديل وفق مقتضيات الموقف وأطرافه أو المشاركين فيه.

المعايير الإدراكية السياقية: التناص والإعلامية

التناص

معنى التناص أن يعتمد إنتاج النص على معرفة منتجيه بنصوص سابقة عليه زمنيا.

في الأدب المقارن وهو الذي يدرس نصوصا مرتبطة بنصوص سابقة

هناك ثلاثة مبادئ هي: الانبثاق، والمرونة والإشعاع

الانبثاق: هو تهيئة الفرصة لظهور نص سابق في النص الحالي، وهو يعتمد على رصد المتكلم لتلك المناسبة وحدودها

المرونة: مدى تصرف منتج النص في النص السابق كي يكون متصلا بالنص الحالي (تصرف تركيبي- دلالي)

الإشعاع: مدى ما يلقيه النص السابق من ظلال على النص الحالي.

فالتناص يشمل جميع الطرق التي يعتمد بها إنتاج النص وفهمه على معرفة المشاركين بنصوص أخرى غيره.

هذه المعرفة تطبق عبر عملية الوساطة / تصرف / مواءمة (بين النصوص السابقة والنص الحالي)

وتختلف درجات الوساطة أو المواءمة على طبيعة النصوص كما يتبين من الجدول المرفق

طبيعة النصوص	درجة والوساطة	المواءمة	مثال
نصوص بعيدة زمانا وموضوعا	كبيرة		جابر بن حيان – التصريف ابن الاثير - الحل

نصوص شهيرة	**متوسطة**	**الاقتباس**
نص حالي	**ضئيلة**	**تكرير ما ورد في دور سابق من أدوار المحادثة**

الإعلامية

إلى أي مدى تكون الأحداث النصية (جديدة، مألوفة، غير متوقعة، غير واقعية)

يجري النص عبر نوعين من الأفعال:

فعل تحفيزي INVOKING ACTION -- يقدم من خلاله الفعل النصي معلومات مألوفة ومعروفة مسبقا

فعل إعلامي INFORMING ACTION – يقدم في الغالب معلومات جديدة أو غير متوقعة

وعليه يمكن تقسيم الإعلامية إلى صنفين:

١- مألوفية FAMILIARITY عنصر أو عملية سبق أن واجهها معالج النص

٢- المعلوماتية INFORMATIONALITY

إلى أي مدى يكون جزء من النص غير متوقع بالنسبة إلى بقية أجزائه

ويتم قياس الإعلامية هنا وفق ما يسمى (الاحتمال السياقي)

إذا كان الحديث عن الاجتهاد يستدعي الحديث عن النجاح فورودهما متعاقبين متوقع سياقيا وفق احتمالية يمكن وصفها بأنها قوية

أما إذا تلى الاجتهاد الفشل فورودهما متعاقبين غير متوقع سياقيا وفق احتمالية ورود ضعيفة

كلما كانت الاحتمالية السياقية كبيرة كانت الإعلامية ضعيفة (درجة أولى)
وكلما كانت الاحتمالية السياقية ضعيفة كانت درجة الإعلامية كبيرة (درجة ثالثة)
وبينهما درجة متوسطة سائدة أو معيارية (درجة ثانية)
ولما كان وجود معلومة جديدة أو غير متوقعة أو غير واقعية يؤثر على استقرار النظام النصي STABILITY ومن ثم يتطلب ذلك إعادة تنظيم REGULATION (تتم عن طريق الخفض أو الترقية/ التصعيد)
الترقية من الأولى إلى الثانية أو من الثانية إلى الثالثة
الخفض من الثالثة إلى الثانية
ويتم الخفض او الترقية بهدف المحافظة على تدفق المعاني ضمن النص بصورة يتحقق بها الانسجام (يمكن أن يتم الخفض عبر التعليل، التفسير، وغيرها مما يكشف عن تعاون مشاركي الفعل النصي.